التوكيد

من مظاهره وأسراره في كتاب سيبويه

تأليف الدكتور

أيوب عبد العـزيز أيوب

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بقسم اللغـة العربية وآدابها

بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

فمما لا شك فيه أن كتاب سيبويه من الكتب الهامة التى لا يمكن الاستغناء عنها فى تتبع الظواهر اللغوية والأسلوبية، لأنه يمثل مرحلة هامة من مراحل التفكير العربى بعد ظهور الاسلام ، اذ يعد باكورة الدراسات العربية المنظمة التى تقوم على رصد واستقراء الظواهر اللغوية لاستنباط القواعد والقوانين التى تضبط فن القول فى اللسان العربى بعد أن فشى اللحن فى اللغة بسبب دخول غير العرب فى الاسلام .

ومما يزيد من أهمية كتاب سيبويه أن مؤلفه يعد من أفقه الناس ـ فى عصره ـ بأسرار العربية وأساليبها ، وأنه أودع كتابه خلاصة فكر العلماء السابقين عليه والمعاصرين له كحماد بن سلمة دينار البصرى ، والأخفش الأكبر ، عبد الحميد بن عبد المجيد ، أبى الخطاب ، ويعقوب ابن اسحاق بن زيد بن عبد الله بن اسحاق الحضرمى، وعيسى ابن عمر الثقفى البصرى أبى سليمان ، وأبى عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبى ، والخليل بن أحمد الفراهيدى البصرى ، وغيرهم من العلماء الذين شافهوا الأعراب ،

وأخذوا عنهم ، وارتبط تفكيرهم النحوى بتحليل النصوص العالية ونقدها لبيان مواطن الحسن ، وابراز عناصر الجمال فيها .

لقد اشتهر كتاب سيبويه فى الوسط العلمى بأنه أول كتاب حوى قواعد النحو العربى ومسائله ، اذ كان سبب تأليفه - كما تحكى كتب التراجم - أن مؤلفه قد أخطأ فى مسألة نحوية ، فمما يروى أنه كان يستملى الحديث على شيخه « حماد بن سلمة » فبينما هو يستملى قول النبى - ﷺ - « ليس من أصحابى الا من لو شئت لأخذت عليه ، ليس أبا الدرداء » قال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » وظنه اسم « ليس » فقال حماد : لحنت ياسيبويه « ليس هذا حيث ذهبت ، وانما ليس » ههنا استثناء ، فقال : لا جرم ، سأطلب علما لا تلحننى فيه . فلزم الخليل فبرع » (١) .

أقول : على الرغم من أن هذا كان سبب تأليف كتاب سيبويه الا أن الكتاب ليس خالصا لعلم النحو فى عرف المتأخرين الذين يعرفونه بأنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلمات اعرابا وبناء « وانما هو كتاب فى النحو فى عرف المتقدمين أمثال الفراء وأبى على الفارسى وابن جنى وعبد القاهر الجرجانى والزمخشرى وغيرهم ممن لم تكن وظيفة النحو فى عرفهم ضبط أواخر الكلمات اعرابا وبناء

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٦٦ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طبعة السعادة : ١٣٧٣ هـ .

فحسب ، بل وظيفتـه ـ بالاضافة الى ذلك ـ الاهتمام بنظم الكلام وتأليفـه ليكون على وفق المنهج الذى سـنته العرب لفنون قولها · قال ابن كيسان : عمل سيبويه كتابا على لغة العرب وخطبها وبلاغتها ، فجعل منه بينا مشروحا ، وجعل منه مشتبها ليكون لمن استنبط ونظر فضل » (٢) ·

ويقول الامام عبد القـاهر فى معنى النظم : واعـلم أن ليس النظم الا أن تضـع كلامك الوضـع الذى يقتضيه علم النحو · وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت فلا تخل بشىء منها ··· فلست بواجد شـيئا يرجع صوابه ان كان صـوابا وخطؤه ان كان خطـأ الى النظم الا وهو معنى من معـانى النحو قد أصيب به موضع أو عومل بخـلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه ··· فلا ترى كلاما قـد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل الا وأنت تجد مرجع ذلك الى معانى النحو وأحكامه (٣) ·

هذا هو معنى النحو فى عرف القدماء ، وهو ما نجده فى كتـاب سيبويه ، بل ان الدارس له لا يعـدم أن يجـد فيه بحوثا قيمة لـكثير من العلوم العـربية والاسلامية · يقول

---

(٢) مقـدمة محقق خـزانة الأدب للبغـدادى : ١/١٧٩ طبعـة بولاق ١٢٩٩ هـ ·

(٣) دلائل الاعجـاز ص : ١١٧ ، ١١٨ تحقيـق د/ محمـد عبد المنعم خفـاجى مكتبة القـاهرة طبعـة اولى : ١٩٦٩ م ـ ١٣٩٨ هـ ·

بعض الدارسين بعد أن أثبت تأثر علماء البلاغة بسيبويه : ان سيبويه بما عرض له فى الكتاب من البلاغة ، وما أكثر فيه من التحليل والموازنة ، واستخراج الأحكام وتصحيحها بالقياس ، وما جمع فيه من القضايا والمسائل التى يعتمد عليها أصول الفقه والنقد الأدبى والتجويد يعد واضع هذه الأربعة ، أو يعد على الأقل واضع البلاغة ، وممهد الطريق للثلاثة الباقية ، ونستطيع كذلك أن نقول : ان كتابه ليس أعظم مراجع النحو والصرف عامة ، ولكنه مع ذلك أصل من أصول الثقافة الاسلامية في غير ناحية من نواحيها المتعددة. انشق عنها ، أو هدى اليها ، وأوحى بها (٤) . ومن ثم يعد كتاب سيبويه مصدرا هاما من مصادر البحث البلاغى ، وقد اخترت « التوكيد من مظاهره وأسراره فى كتاب سيبويه » موضوعا لهذا البحث ، لأن التوكيد ـ فى تقديرى ـ هو القاسم المشترك بين أكثر الأساليب العربية ، اذا لم تكن كلها ، واخترت من مظاهره : التوكيد بالبدل ، والتوكيد بالمصدر ، والتوكيد بالنداء ، والتوكيد بالاختصاص ، والتوكيد بالقصر مكتفيا بهذه الخمسة ، اذ ان مظاهر التوكيد فى الكتاب كثيرة ومتنوعة تحتاج الى دراسة أكبر فى كتاب مستقل .

والله أسأل أن يوفقنا دوما لخدمة لغة القرآن الكريم .

---

(٤) سيبويه امام النحاة : ١٩٢ على النجدى ناصف مكتبة نهضة مصر .

وأن يهـدينا سواء السبيل وأن يجعل هـذا العمـل خالصا لوجهه الكريم ، انه نعم المولى ونعم النصير ٠

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ٠٠٠

دكتور/ أيوب عبد العزيز أيوب

التوكيد بالبدل

يدرس النحويون البدل من حيث انه تابع مقصود بالحكم بلا واسطة [١] . أما البلاغيون فيدرسونه من حيث ما يبوح به من أسرار قد تتوارى خلف الوجوه الاعرابية . اذ البدل عندهم لزيادة التقرير والايضاح [٢] .

وقد درس سيبويه البدل ، وأشبع القول فيه من وجهة النظر النحوية والبلاغية ، فنراه يقسمه أقسامه المشهورة التى نقلها عنه علماء النحو والبلاغة . شارحا الوجوه الاعرابية الجائزة فى كل قسم من أقسامه .

أما من وجهة النظر البلاغية فانه يذكر من أقسامه الفصيح وغير الفصيح ، ثم يوضح السر البلاغى لأقسامه الفصيحة . والتى - غالبا - ما تكون التوكيد أو البيان ، ولم يكتف سيبويه ببيان القيمة البلاغية للتعبير بأسلوب البدل ، وانما يضع يدنا على الجهة التى أفادت التوكيد أو البيان فيه . فيقول [٣] : « هذا باب من الفعل يستعمل فى

---

(١) ابن عقيل : ١٩٤/٢ . وحاشية الصبان على الأشمونى : ١٢٣/٣ . ومعنى انه مقصود بالحكم - أى المنسوب الى متبوعه - انه مغاير للنعت والتوكيد وعطف البيان اذ ان كل واحد منها مكمل للمقصود بالحكم ، وليس مقصودا به ، ومعنى « بلا واسطة » انه مغاير للمعطوف بحرف من حروف العطف ، فان المعطوف وان كان مقصودا بالحكم الا أنه بواسطة حرف العطف .

(٢) الايضاح بشرح الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى : ٤٦/٢ .

(٣) الكتاب : ١٥٠/١ - ١٥٢ .

الاسم . ثم يبدل مكان ذلك الاسم اسم آخر فيعمل فيه كما عمل فى الأول » وذلك قولك : رأيت قومك أكثرهم ، ورأيت بنى زيد ثلثيهم ، ورأيت بنى عمك ناسا منهم ، ورأيت عبد الله شخصه ، وصرفت وجوهها أولها فهذا يجىء على وجهين : على أنه أراد رأيت ثلثى قومك ، ورأيت أكثر قومك ، وصرفت وجوه أولها ولكنه ثنى الاسم توكيدا ، كما قال جل ثناؤه : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » (٤) وأشباه ذلك ، فمن ذلك قوله عز وجل : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » (٥) وقال الشاعر :

وذكرت تقتد برد مائها وعتك البول على أنسائها (٦)

ويكون على الوجه الآخر الذى أذكره لك ، وهو أن يتكلم فيقول : رأيت قومك ، ثم يبدو له أن يبين ما الذى رأى منهم ، فيقول : ثلثيهم أو ناسا منهم .

ولا يجوز أن تقول : رأيت زيدا أباه ، والأب غير زيد ، لأنك لا تبينه بغيره ، ولا بشىء ليس منه ، وكذلك لا تثنى الاسم توكيدا ، وليس بالأول ، ولا شىء منه ، وانما تثنيه وتؤكده

---

(٤) من الآية : ٣٠ من سورة الحجر ، ٧٣ من سورة ص .

(٥) سورة البقرة : من الآية : ٢١٧ .

(٦) تقتد : ركية فى شق الحجاز من مياه بنى سعد بن بكر بن هوازن ، وعتك البول : ان يضرب الى الحمرة والأنساء : جمع « نسا » وهو عرق يستبطن الفخذ والساق ، واذا قل ورود الابل الماء خثر بولها وغلظ ، واشتدت صفرته .

والشاهد : نصب « برد » على البدل من « تقتد » لاشتمال الذكر عليها .

مثنى بما هو منه ، أو هو هو ٠

وانما يجوز رأيت زيدا ، أباه ، ورأيت زيدا عمرا ، أن يكون أراد أن يقول : رأيت عمـرا أو رأيت أبا زيـد فغلط ، أو نسى ثم استدرك كلامه بعد ، واما أن يكون أضرب عن ذلك فنحاه ، وجعل عمرا مكانه ٠

فالأول جيد عربى ٠ مثله قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » [٧] ، لأنهم من الناس ، ومثله الا أنه أعيد حرف الجر [٨] قوله تعالى : « قال الملأ الـذين استـكبروا من قـومه للـذين استضعفوا لمـن آمن منهم » [٩] ٠

ويقول فى موطن آخر : « هـذا باب بـدل المعـرفة من النكرة ، والمعـرفة من المعـرفة » [١٠] أما بدل المعـرفة من النكرة فقولك : مررت برجـل عبد الله ٠ كأنه قيـل له : بمن مررت ؟ أو ظن أنه يقال له ذاك ٠ فأبدل مكانه ما هو أعرف منه ، ومثـل ذلك قوله عز وجل : « وانك لتهـدى الى صراط مستقيم صراط الله » [١١] ومن البدل أيضا مررت بقوم عبد الله وزيـد وخالد ، وأما بدل المعرفة من المعرفة فـكقولك مررت

---

(٧) سورة آل عمـران ، من الآيـة : ٩٧ ٠

(٨) المثبت فى الـكتاب : « الا أنهم أعادوا حرف الجر » وهو لا يليـق بجلال القـرآن ٠

(٩) سورة الأعـراف ، من الآيـة : ٧٥ ٠

(١٠) الكتـاب ٢/١٤ ، ١٥ ، ١٦ ٠

(١١) سورة الشورى ٠ الآيتـان : ٥٢ ، ٥٣ ٠

بعبد الله زيد ، وقد يكون مررت بعبد الله أخوك ، كأنه قيل له : من هو ؟ أو من عبد الله ؟ فقال : أخوك ٠

هذا مما قاله سيبويه فى البدل ، وقيمته البلاغية ، ومنه نلحظ ما يأتى :

أولا : أنه مثل للبدل بأقسامه المتنوعة ، مثل لبدل الكل من الكل ٠ وبدل البعض من الكل ، وبدل الاشتمال ، وبدل الغلط ، وبدل النسيان ، وبدل الاضراب ٠ كما مثل لبدل المعرفة من النكرة ، وبدل المعرفة من المعرفة ، وبدل المفصل من المجمل ٠ فمثل لبدل الكل بقوله تعالى : « وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله » ومن غير القرآن بقوله : « مررت بعبد الله زيد ومررت بعبد الله أخوك ، ومثل لبدل البعض من القرآن بقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وقد أشار الى أن البدل فى الآية من بدل البعض بقوله : « لأنهم من الناس » كما مثل له أيضا بقوله تعالى : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم » ومثل له من غير القرآن بقوله : رأيت قومك أكثرهم ، ورأيت بنى زيد ثلثيهم ، ورأيت بنى عمك ناسا منهم ٠ فأكثرهم وثلثيهم وناسا منهم بعضهم ٠

ومثل لبدل الاشتمال بقوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » فالقتال ليس من بدل الكل ، لأنه ليس الشهر الحرام ، ولا بدل بعض ، لأنه ليس جزء الشهر الحرام ، وانما هو معنى اشتمل عليه الشهر ٠ كما مثل له أيضا بقول الشاعر :

« ذكرت تقتـد برد مائهـا »

فتقتـد مشتملة على « برد » ٠

ومثـل لبـدل المعرفة من النكرة بقوله : مررت برجـل عبد الله ، ولبـدل المفصـل من المجمل بقوله : مررت بقوم : عبد الله وزيد وخالد ٠

ومثل لبدل الغلط أو النسيان أو الاضراب بقوله : رأيت زيدا أباه ورأيت زيدا عمرا ٠ هذه أقسام البـدل فى كتـاب سيبويه قد وفاها حقها ، لم يترك قسما من أقسامه الا ذكره ٠ ومثل له ، حتى أصبح واضح القسمات ، ظاهر المعالم ، ولم أجد اضافة لأى من اقسامه بعده الا ما كان من قبيل الشرح أو الاختصـار ، أو التفريع عما قاله ، وقـد فرعوا عن بدل الغلط ، نوعا سـموه « بدل البـداء » وهو أن يذكر المتـكلم المبـدل منه عن قصـد ٠ ثم يتوهم أنه غالط ٠ يقول السـيد الشريف الجرجانى ٠ وهو يشرح بدل الغلط : الغلط ثـلاثة أقسام : غلط صريح محقق كما اذا أردت أن تقـول : جاءنى زيد فسـبقك لسانك الى عمرو ، ثم تداركتـه فقلت : زيد ، وغلط نسيان وهو أن تنسى المقصود فتعمد ذكر ما هو غلط ، ثم تتداركه بذكر المقصود ، فهذان لا يقعان فى فصيح الكلام، ولا فيما يصـدر عن روية وفطانة ٠ وان وقع فى كلام فحقه الاضراب عن الأول بكلمة « بل » وغلط « بداء » وهو أن تذكر المبـدل منه هن قصـد ، ثم تتوهم أنك غالط ، وهـذا معتمد الشعراء كثيرا مبالغة وتفننا ، وشرطه أن ترتقى من الأدنى الى الأعلى ، كقولك : « هند نجم بدر » كأنك وان كنت معتمدا

لذكر النجم تغلط نفسك ، وترى أنك لم تقصد الا تشبيهها بالبدر ، وكذا قولك : بدر شمس ، وادعاء الغلط ههنا واظهاره أبلغ فى المعنى من التصريح بكلمة « بل » (١٢) .

هذه هى الاضافة التى أضافها العلماء الى أقسام البدل بعد سيبويه ، وان كانت متفرعة عن بدل الغلط الذى ذكره .

ثانيا : ان سيبويه قد أبرز القيمة البلاغية لبدل الكل وبدل البعض وبدل الاشتمال دون بدل الغلط ، وحصرها فى التوكيد والبيان ، أما التوكيد فيأتى عن طريق تكرير الاسم وتثنيته ، وأما البيان فيأتى عن طريق تفسير المراد من المبدل منه وايضاحه ، فيقول بعد أن أورد أمثلة الأقسام الثلاثة : فهذا يجىء على وجهين :

على أنه أراد رأيت أكثر قومك . ورأيت ثلثى قومك ، وصرفت وجوه أولها ولكنه ثنى الاسم توكيدا . كما قال جل ثناؤه : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » .

ويكون على الوجه الآخر الذى أذكره لك ، وهو أن يتكلم فيقول : رأيت قومك ، ثم يبدو له أن يبين ما الذى رأى منهم . فيقول : ثلثيهم أو ناسا منهم .

ولا يجوز أن تقول : رأيت زيدا أباه ، والأب غير زيد ، لأنك لا تبينه بغيره ولا بشىء ليس منه ، وكذلك لا تثنى الاسم توكيدا وليس بالأول ، ولا شىء منه وانما تثنيه ، وتؤكده

---

(١٢) حاشية السيد الشريف على المطول ، ص : ٩٩ .

مثنى بما هو منه ، أو هو هو ٠

فقوله : « انما تثنيه وتوكده مثنى بما هو منه » اشارة الى بدل البعض وبدل الاشتمال ، وقوله : « أو هو هو » اشارة الى بدل الكل ٠

وبذلك يكون سيبويه هو أول من أبرز القيمة البلاغية لهذا اللون من التعبير مقارنا بين أن نقول : رأيت ثلثي قومك ، ورأيت قومك ثلثيهم ، وبين أن يقال : يسألونك عن القتال في الشهر الحرام ٠ وقوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » وبين أن يقال : اهدنا صراط الذين انعمت عليهم ، وقوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » ٠

بدل الغلط ، أو النسيان فلا يأتيان في فصيح الكلام ٠ ولا فيما يصدر عن روية وفطانة ، فان وقع أحدهما في كلام ٠ وأضرب عن الأول بكلمة « بل » صار بدل اضراب، يقول سيبويه : ولا يجوز أن تقول : رأيت زيدا أباه ، والأب غير زيد ، لأنك لا تبينه بغيره ، ولا بشيء ليس منه ، وكذلك لا تثنى الاسم توكيدا وليس بالأول ، ولا بشيء منه ، وانما يجوز أن تقول : رأيت زيدا أباه ، ورأيت زيدا عمرا ، أن يكون أراد أن يقول : رأيت أبا زيد ، ورأيت عمرا ، فغلط أو نسى ، ثم استدرك كلامه بعد ٠ واما أن يكون أضرب عن ذلك ٠ فنحاه وجعل عمرا مكانه ٠

اذن فليس هناك سر بياني لبدل الغلط أو النسيان أو الاضراب عند سيبويه ، لأن المبدل ليس هو المبدل منه ،

ولا جزؤه ، ولا مشتمل عليه فلا يفيد أحدها تبيينا ولا تأكيدا ٠

ولكن ما نوع التأكيد الذى يفيده البدل عند سيبويه ؟ هل يريد معناه اللغوى فيكون المراد مطلق تقوية ؟ أو أن مراده التوكيد الصناعى الذى اصطلح عليه العلماء بعده والحاصل من اعادة اللفظ الأول بنفسه أو بمعناه ٠

واذا رجعنا الى الآية التى استشهد بها سيبويه ، وهى قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » فسوف نجد أن لفظى « كلهم أجمعون » من ألفاظ التوكيد الاصطلاحى ، وعلى الرغم من أن هاتين الكلمتين تفيدان الشمول والاحاطة الا أنه يغلب على ظنى أن سيبويه لم يقصد سوى التمثيل لمطلق التوكيد الاصطلاحى الذى يؤتى به للتقرير أو لدفع توهم السهو أو التجوز ، ولعل ذلك ما يعنيه ابن يعيش بقوله ـ فى سر التعبير بالبدل ـ : « وانك اذا قلت : جاء أخوك ، جاز أن تريد كتابه ، أو رسوله ٠ فاذا قلت : « زيد » زال ذلك الاحتمال كما لو قلت : نفسه ، أو عينه [١٣] ٠

هذا بالنسبة الى التوكيد ، أما بالنسبة الى البيان ، فانه يأتى من حيث كون المبدل منه مقتضيا للمبدل ، ومتضمنا له ، اما تضمنا كليا أو تضمنا جزئيا ، أو تضمنا اشتماليا بحيث تبقى النفس عند ذكر الأول متشوفة الى ذكر الثانى ، منتظرة له ، فاذا ذكر كان ايضاحا وتفسيرا له ٠

وبذلك يكون سيبويه قد وفى هذا اللون من التعبير حقه

---

(١٣) شرح المفصل : ٣/٦٦ ٠

من البحث والدراسة بحيث لم يترك لغيره من العلماء أن يضيف شيئا ذا بال يمس حقيقته وجوهره • وكل ما أضافوه أن البدل على نية تكرار العامل ، وسيأتى بيان ذلك مفصلا فى دراسة البدل بعد سيبويه ان شاء الله تعالى •

ثالثا : ان سيبويه قد حدد الحال التى تقتضى التعبير بالبدل ، وهى ازالة شبهة خالجت نفس المخاطب حقيقة أو ظنا بمعنى أن الشبهة التى أزالها البدل اما شبهة تسربت الى نفس المخاطب حقيقة بعد ذكر المبدل منه • واما أن المتكلم ظن أن ثمة شبهة ، فأتى بالبدل ليزيلها • يقول سيبويه فى أثناء شرحه لبدل المعرفة من النكرة اما بدل المعرفة من النكرة فكقولك : مررت برجل عبد الله ، كأنه قيل له : بمن مررت ؟ أو ظن أنه يقال له ذلك • فأبدل مكانه ما هو أعرف منه •

واذا كان المتأخرون من علماء البلاغة قد عرفوا البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فان سيبويه قد أشار الى ذلك وطبقه فى مواضع كثيرة من كتابه •

البدل بعد سيبويه :

لم يضف العلماء ـ بعد سيبويه ـ شيئا لدراسة البدل • لا من حيث أقسامه • ولا من حيث قيمته البلاغية ، فقسموه الى بدل الكل وبدل البعض وبدل الاشتمال • وبدل الغلط كذلك نقلوا عنه سر التعبير بالبدل وهو التوكيد والبيان ، قال الخطيب وهو يشرح أحوال المسند اليه : « وأما الابدال منه فلزيادة التقرير والايضاح ، نحو جاء زيد أخوك ، وجاء

القوم أكثرهم ، وسلب عمرو ثوبه » [١٤] .

وقال السعد فى شرحه لهذا الموضع : وسكت عن بدل الغلط ، لأنه لا يقع فى فصيح الكلام [١٥] . ومن قبل قال السكاكى : وأما الحالة التى تقتضى البدل عنه فهى اذا كان المراد نية تكرير الحكم ، وذكر المسند اليه بعد توطئة ذكره لزيادة التقرير والايضاح ، كقولك : سلب زيد ثوبه ، وجاء القوم أكثرهم ، وحق عليك الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، فى الأنواع الثلاثة من البدل دون الرابع [١٦] .

هذا ما قاله علماء البلاغة ، ومنه يعلم أنهم لم يضيفوا شيئا الى ما قاله سيبويه ، الا قول السكاكى : ان البدل على نية تكرار الحكم .

أما الزمخشرى فقد كان أطول باعا ، وأكثر دقة وتفصيلا فى دراسة البدل سواء من ناحية النظرية ، أو التطبيق ، فقد قال فى تقسيمه : والبدل على أربعة أضرب : بدل الكل من الكل كقوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » وبدل البعض من الكل كقولك : رأيت قومك أكثرهم وثلثيهم وناسا منهم ، وصرفت وجوهها أولها ، وبدل اشتمال كقولك : سلب زيد ثوبه ، وأعجبنى عمر حسنه وأدبه وعلمه ، ونحو ذلك مما هو منه ، أو بمنزلته فى التلبس به ، وبدل الغلط كقولك : مررت برجل حمار وهذا

---

(١٤) الايضاح بشرح الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى : ٢/٤٦ .

(١٥) المطول : ص : ٩٩ .

(١٦) القسم الثالث من مفتاح العلوم ، ص : ٩١ .

لا يكون الا فى بداية الكلام ، وما لا يصدر عن روية وفطانة » (١٧) .

ونقل عن سيبويه سر التعبير بالبدل ، فقال : وهو الذى يعتمد بالحديث ، وانما يذكر الأول لنحو من التوطئة ، وليفاد بمجموعهما فضل تأكيد وتبيين لا يكون فى الافراد ، قال سيبويه عقيب ذكر أمثلة البدل : أراد رأيت أكثر قومك ، وثلثى قومك . وصرفت وجوه أولها ، ولكنه ثنى الاسم توكيدا . وقولهم : انه فى حكم تنحية الأول ايذان منهم باستقلاله بنفسه ... والذى يدل على كونه مستقلا بنفسه أنه فى حكم تكرير العامل ، بدليل مجىء ذلك صريحا فى قوله عز وجل : « للذين استضعفوا لمن آمن منهم » . وقوله : لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة » (١٨) .

فالزمخشرى قد أضاف الى ما قاله سيبويه أن البدل على نية تكرير العامل بمعنى : أن البدل ليس من جملة المبدل منه (١٩) . وانما هو من جملة أخرى ، فاذا قلنا - مثلا - رأيت أخاك زيدا ، تقديره رأيت أخاك ، رأيت زيدا ، فذلك الفعل المقدر هو العامل فى البدل ، الا أنه حذف لدلالة الأول عليه ، واستدل على ذلك بظهور العامل قبل البدل والمبدل منه فى قوله تعالى: « للذين استضعفوا لمن آمن منهم » وقوله تعالى:

---

(١٧) شرح المفصل لابن يعيش : ٢/٦٣ .

(١٨) السابق ، ٢/٦٦ .

(١٩) هذا مذهب ابى الحسن الأخفش وجماعة من المحققين كأبي على الفارسى والرمانى وغيرهم من جمهور المتأخرين .

« لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة » فقوله : « لمن آمن منهم » بدل بعض من الذين استضعفوا ٠ وقوله : « لبيوتهم سقفا من فضة » بدل اشتمال من « لمن يكفر بالرحمن » وقد ظهر العامل ـ وهو اللام ـ قبل البدل وقبل المبدل منه ، فلو كان العامل فيهما واحدا لأدى ذلك الى مخالفة ضابط نحوى ، وهو أن يكون قد عمل فى الاسم عاملان هما : اللام الأولى واللام الثانية ، ومن قواعدهم المشهورة « أن حروف الجر لا تعلق عن العمل » (٢٠) ٠ وهذا مخالف لما قاله سيبويه ، اذ انه يرى أن البدل ليس على نية تكرار العامل ، وانما هو من جملة المبدل منه فالعامل فيهما واحد ، وقد أشار الى ذلك بقوله : « هذا » هذا باب من الفعل يستعمل فى الاسم ، ثم يبدل مكان ذلك الاسم اسم آخر فيعمل فيه كما عمل فى الأول ٠

أما وجود العامل قبل البدل وقبل المبدل منه فى بعض المواضع من القرآن ، كما فى هاتين الآيتين ، وما يشبههما فهو معاد للتأكيد ، وقد أيد هذا الرأى أبو العباس المبرد والسيرافى من المتأخرين (٢١) ٠

واذا كان سيبويه يرى أن البدل من جملة المبدل منه ، فهو عنده لا يفيد تأكيد النسبة الناتجة من تكرار العامل حكما ٠ اذن فلا فرق عنده بين بدل الكل وعطف البيان : ومن ثم نرى عالما كبيرا كالرضى يقول : أنا الى الآن لم يظهر لى

---

(٢٠) شرح المفصل لابن يعيش : ٦٧/٢ ٠

(٢١) السابق ، ٦٧/٢ ٠

فرق جلى بين بدل الكل وعطف البيان ، بل لا أرى بدل الكل الا عطف البيان ، وهذا سيبويه امام الصناعة لم يذكر عطف البيـان ، ولم يسلم كون الأول فى نيـة الطرح فى بدل الكل ولا فى نيـة تكرار العامل (٢٢) ٠

وقد ينقض رأى الرضى ما فرق بـه العلماء بين عطف البيان وبدل الكل ، فقد فرقوا بينهما بفروق بلغت اثنتى عشر فرقا (٢٣) ٠ يضاف الى تلك الفروق أنا اذا رجعنا الى تعريف كل منهما فسوف نجـد أنهم قـد عرفوا البـدل بأنه التـابع المقصود بالحكم بلا واسطة « وقالوا : خرج عطف البيـان عن هذا الحد ، اذ انه مكمل للحكم ٠ وليس مقصودا به»(٢٤) ٠ وعرفوا عطف البيان « بأنه التابع المشبه للصفة فى ايضاح متبوعه ان كان معرفة ، وتخصيصه ان كان نكرة » وقالوا : خرج بالايضاح والتخصيص البدل والتوكيد والنسق (٢٥) ٠

ولمـا كان المقصود بالايضاح رفع الاحتمال فى المعارف ، والمقصود بالتخصيص تقليـل الاشتراك فى النكرات ، وكان تقليل الاشتراك ورفع الاحتمال لا يتـأتيان من مفرد ، وانما يتأتيان من متعدد ، فان المعطوف عليه عطف بيان ينبغى أن

---

(٢٢) شرح كافية ابن الحاجب ، نور الدين عبد الله الجامى : ٢/٦٤ ، وحاشـية الأمير على المغنى : ٢/٨٥ ٠

(٢٣) من الأسرار البلاغية للتوكيد والبيـان والبدل فى المفرد والجملة ص : ٥١ وما بعدها د/ ايوب عبد العزيز ايوب ٠

(٢٤) التصريح على التوضيح : ٢/١٥٥ ٠

(٢٥) السابق ، ٢/٦٣١ ٠

يكون متعددا أو قابلا للتعدد حتى يمكن ايضاحه أو تخصيصه بالمعطوف ٠

واذا ظهر أن المتبـوع فى عطف البيان ينبغى أن يكون متعددا ، أو قابلا للتعدد وكانت حقيقة البدل غير حقيقة عطف البيان ، وكان القيد الذى أخرج البدل من حد البيان هو نفسه الذى أوجب تعدد المتبـوع ، بمعنى أن المغـايرة بينهما انما كانت من جهة تعدد المتبوع فى البيان وعدم تعـدده فى بدل الكل ، فان المتبـوع فى البدل لا يكون متعـددا وانما يكون مفـردا ٠

وبنـاء على ما سـبق يمكن أن نضيف الى تعريف كل منهما قيدا ـ وان كان هذا القيـد مفهوما من تعريف عطف البيان ـ يميز أحدهما عن الآخر ويكون حدا فاصلا بينهما ، فنقول فى حد عطف البيان : « هو التـابع المشبه للصفة فى ايضاح متبـوعه ان كان معرفة ، وتخصيصه ان كان نكرة بحيث يكون المتبوع فيه متعددا ، أو قابلا للتعدد » ونقول فى تعريف البدل : هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة بحيث لا يجوز أن يكون المتبوع فيه متعددا ٠

وبعد اضافة هذا القيد الى حد كل منهما ننظر فى الأمثلة التى قالوا : انها تصلح أن تكون بدلا أو عطف بيـان ٠ فاذا جاز أن يكون المتبوع متعددا كان التابع عطف بيان ، واذا لم يجز أن يكون المتبوع متعددا كان التابع بدل كل ٠

فلو قلنـا : جاء أخوك خالد ٠ فكلمة « خالد » لا تعـرب الا عطف بيان لتعدد المتبوع ان كان له أكثر من أخ ، أو جواز

تعدده اذا لم يكن له اخوة غير خالد ٠

أما اذا قلنا : جاء أبوك زيد ٠ فان كلمة « زيد » لا تعرب الا بدل كل لعدم جواز تعدد الأب [٣٦] ٠

من الأسرار البلاغية للتوكيد والبيان والبدل من ص : ٤٨ - ١١٤ ٠

(٣٦) لمزيد من التفصيل عن الفرق بين عطف البيان وبدل الكل ينظر د/ ايوب عبد العزيز ايوب ٠

التوكيد بالمصـــدر

من وسائل التوكيد عنـــد سيبويه « المصدر المنصوب » وقـــد درس سيبويه المصدر من جهات متعددة ، فدرسه من حيث كونه مؤكدا لمـــا قبله ، أو مؤكدا لنفسه ومن حيث حذف فعله وجوبا ، أو أنه يجوز أن يعرب مفعولا مطلقا ، أو حالا ٠

المصدر المؤكد لمـــا قبـــله :

يقول سيبويه : « هذا باب ماينتصب من المصادر توكيدا لمـــا قبله » (٢٧) ٠ وذلك قولك : هذا عبد الله حقا ، وهذا زيد الحق لا البـــاطل ، وهذا زيد غيـــر ما تقول ، وهـــذا القول لا قولك ، وأجدك لا تفعـــل كذا وكذا ، وهذا الأمر غير قيـــل باطل ، وقعد البتـــة ٠

ولمـــا كان الغرض من هـــذه المصادر وهو التوكيد قـــد لا يتأتى فى بعضها وهى منكرة ، فان سيبويه قسمها من حيث جواز تنكيرها وتعريفها الى ما يأتى :

ما لا يستعمل الا معرفا بالألف واللام ٠ نحـــو : قعـــد البتـــة ٠

ما لا يستعمل الا معرفا بالاضافة ، نحو : أجدك لا تفعل كذا وكذا ، ما يجوز تنكيره وتعريفه بالألف واللام نحو : هذا عبد الله حقا وهذا عبد الحق لا الباطل ٠

ما يجوز تنكيره وتعريفه بالاضافة ، نحو : هـــذا الأمر غير قيل باطل ، وهذا زيد غير ما تقول ٠

---

(٢٧) الـــكتاب : ١/٣٧٨ وما بعـــدها ٠

وفى بيـان الموضع الأخيـر يقول سيبويه : « وأما غير ما تقول » فلا تعرى من أن تكون فى هذا الموضع مضافة الى اسـم معروف ، نحو : « قولك » لأنـه لو قال : « غير قول » أو « لا قولا » لم يكن فى هذا بيان ، لأنه ليس كل قول باطلا ، وانما يريد أن يحقق الأول بأمر معروف . ولو قال : « هذا الأمر غير قيل باطل » كان حسنا ، لأنه قـد وكد أول كلامه بأمر معروف ، وقد اختصه ، فصار بمنزلة قولك « لا قولك » حين جعله مضافا ، لأنك قـد اختصصته من جميـع القـول باضافتك وأنـه يسوغ أن يكون قوله باطلا ، ولا يسـوغ أن يكون جميع الأقوال باطلا (٢٨) .

ويوضح ابن يعيش هذا بقوله : ولو أسقطت الاضافة ، وقلت : « هـذا القول لا قولا » لم يحسن الحـذف لسـقوط الفائدة ، لأنه لم يكن فيما بقى ما يدل على البطلان فلو وصفته بما يدل على البطـلان ، نحـو : هذا القولا لا قولا كـذبا ، أو غير قيـل ضعيف ونحو ذلك مما يدل على ضده أو صحته لجاز لحصول الفـائدة والتوكيد (٢٩) .

أما كيف تفيـد هذه المصادر تقوية الكلام وتوكيـده . فانه لمـا قيل : قعد البتـة ، فان البتة مصدر موكد لمضمون الجملة قبله ، وهو منصوب بفعل محذوف تقديره : أبت ذلك البتـة : أى أبت ذلك بتـا .

وقوله فى الاستفهام : أجدك لا تفعـل كذا . أصله من

---

(٢٨) الـكتاب : ١/٣٧٩ .

(٢٩) شرح المفصـل : ١/١١٦ .

الجد الذى هو نقيض الهزل ، كأنه قال : أتجد ذلك جدا ؟ غير أنه لا يستعمل الا مضافا حتى يعلم صاحب الجد ٠

وقوله : هذا عبد الله حقا ، فانه لما قال هذا عبد الله ، جاز للمخاطب أن يقبله ، ويصدق به أو يشك فيه ، ويتردد فى قبوله ، فلما قال : « حقا » صار الخبر يقينا لا شك فيه ٠ ولا تردد ٠ وكأنه قال : أحق ذلك حقا ٠ وعليه ورد قوله تعالى : « أولئك هم الكافرون حقا » [٣٠] أى هم الكاملون فى الكفر و « حقا » تأكيد لمضمون الجملة ، قال الزمخشرى : كقولك : هو عبد الله حقا : أى حق ذلك حقا ٠ وهو كونهم كاملين فى الكفر ٠ أو هو صفة لمصدر الكافرين : أى هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لا شك فيه [٣١] ٠ وبه قال أبو السعود ، ومنه قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ٠ ومن أصدق من الله قيلا » [٣٢] ٠ قال الزمخشرى : « وعد الله حقا » مصدران أى وعده وعدا وحق ذلك حقا ٠ الأول مؤكد لنفسه ، والثانى مؤكد لغيره ، و « من أصدق من الله قيلا » توكيد ثالث بليغ ٠ فان قلت : ما فائدة هذه التوكيدات ؟ قلت : معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة٠ وأما نية الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه ترغيبا للعباد فى ايثار ما يستحقون به تنجز وعد الله على

---

(٣٠) سورة النساء من الآية : ١٥١ ٠

(٣١) الكشاف : ١/١٧٦ ، وتفسير ابى السعود : ٢/٢٤٨ ٠

(٣٢) سورة النساء ، الآية : ١٢٢ ٠

مـا يتجـرعون فى عاقبتـه غصص اخـلاف مواعيـد الشيطان » (٣٣) .

وقوله : هـذا عبد الله الحق لا الباطل أشد توكيـدا من قوله : هـذا عبد الله حقـا وكأن المخاطب به كان ينكر كون عبد الله حقا ، ويعتقـد كونه باطلا فجـاء الكلام على هـذه الصـورة من التوكيـد بطريق القصر بالعطف بلا ، ليـزيل الانـكار من نفس المخاطب ، بل ويقلب عليه اعتقـاده . قال السعد : فان قلت : اذا تحقق تنافى الوصفين فى قصر القلب فاثبـات أحدهما يكون مشعرا بانتفـاء الغير فما فائدة نفى الغير واثبـات المذكور بطريق الحصر ؟ قلت : الفـائدة فيه التنبيه على رد الخطـأ فيه . وأن المخاطب اعتقـد العكس ، فان قولنا : زيد قائم وان دل على نفى القعود لكنه خال من الدلالة على أن المخاطب اعتقد أنه قاعد (٣٤) .

أما قوله : هذا زيد غير ما تقول : أى هذا زيد حقا غير ما تقول يعنى غيـر قولك . فغير صـفة لموصوف محذوف ، وكأن المتكلم اعتقد أن قول المخاطب باطل فيكون مراده هذا زيد حقـا لا باطلا .

وجوز سيبويه أن يأتى هـذا المصدر مرفوعا . وحكى ذلك عن بعض العرب الموثوق به فقال : وسمعنا بعض العرب الموثوق به يقال له : كيف أصبحت ؟ فيقول : حمد الله وثنـاء عليه ، وكأنه يحمـله على مضمر فى نيتـه هو المظهر ، كأنه

---

(٣٣) الكشاف : ١/٥٦٥ ، وتفسير أبى السعود : ٢/٢٣٥ .

(٣٤) مختصر المعـانى ، ص : ١٣٦ .

يقول : أمرى وشأنى حمد الله وثنـاء عليه ٠

ثم استشهد سيبويه لجواز الرفع ببيت سمعه من بعض العرب الموثوق به فيقول : وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به يرويه :

فقالت حنان ما أتى بك ههنا

أذو نسب أم أنت بالحى عارف

لم ترد « حن » ولكنها قالت : أمرنا حنان ، أو ما يصيبنا حنـان [٣٥] ٠

وقد جوز العلماء النصب والرفع فى قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيـه يمترون » [٣٦] فقـرىء « قول الحق » بالنصب والرفـع فالنصب على أن « قـول » مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبـله : أى هذه الأخبـار عن عيسى أنه ابن مريم ثابت صـدق ٠ وليس منسوبا لغيرها ، قـال الزمخشرى : كقـولك : هـو عبد الله حقـا ، والحق لا الباطل [٣٧] : أى أقول الحق ، أو أقول قول الحق ، فيكون الحق هنا الصدق ، وهو من اضافة الموصوف الى الصفة : أى القـول الحق ، كما قال وعـد الصـدق : أى الوعـد الصدق [٣٨] ٠

أما الرفع فعلى أن « قول الحق » خبر بعد خبر ، وكأن

---

(٣٥) الـكتاب : ١/٣١٩ وما بعـدها ٠

(٣٦) سورة مـريم : الآيـة : ٣٤ ٠

(٣٧) الكشاف : ٣/١٦ ٠

(٣٨) البحـر المحيط : ٦/١٨٩ ٠

عيسى نفسه قول الحق . وذلك لتأكيد وصف الاخبار عنه بالصدق على طريقة الاسناد المجازى كما فى قول الخنساء فى وصف الناقة :

ترتع ما غفلت حتى اذا ادكرت

فانما هى اقبال وادبار

يقول الامام عبد القاهر : جعلت الناقة لكثرة ما تقبل وتدبر ، وغلبة ذلك عليها ، واتصاله به ، وأنها لم يكن لها حال غيرهما ، كأنها تجسمت من الاقبال والادبار (٣٩) .

وقد جاءت الآية على هذا النحو من التأكيد للرد على المكذبين الذين كانوا يشكون فى أمر عيسى عليه السلام لازالة ذلك الشك من نفوسهم .

وفى نظم الآية عنصر آخر من عناصر التوكيد ، فبالاضافة الى أن الخبر « قول الحق » مصدر مؤكد لمضمون الجملة على قراءة النصب ، أو من قبيل الاسناد المجازى على قراءة الرفع ، فالمبتدأ اسم اشارة للدلالة على بعد منزلة المتحدث عنه ، وعلو مرتبته ، وكون صدق الاخبار عنه من الظهور والوضوح كالشىء المحسوس ، بحيث لا يشك فى صدق تلك الاخبار الا من تعطلت حواسه فصار لا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ، وفى هذا من تكذيبهم وتسفيه عقولهم ما فيه .

هذا مذهب سيبويه ، ومنه يعلم أنه يجوز حذف المؤكد

---

(٣٩) دلائل الاعجاز ، ص : ١٩٢ .

واثبات التوكيد ، وهو مذهب الخليل أيضا حيث سأله سيبويه عن نحو قولهم : « مررت بزيد ، وأتانى أخوه أنفسهما » كيف ينطق بالتوكيد ؟ فأجاب الخليل بأنه يرفع بتقدير : « هما صاحباى أنفسهما » وينصب بتقدير : « أعنيهما أنفسهما » (٤٠) .

ولكن العلماء - بعد سيبويه - اختلفوا فى جواز حذف المؤكد واثبات التوكيد . فمنهم من جوز ذلك . ومنهم من منعه ، حكى ابن هشام فى المغنى (٤١) طرفا من هذا الخلاف فى أثناء حديثه عن شروط الحذف فقال : والشرط الثالث : ألا يكون المحذوف مؤكدا ، وهذا الشرط أول من ذكره الأخفش منع فى نحو : « الذى رأيت زيدا » أن يؤكد العائد المحذوف بقولك : « نفسه » لأن المؤكد مريد للطول، والحاذف مريد للاختصار ، وتبعه الفارسى فرد فى كتاب الاغفال قول الزجاج فى « ان هذان لساحران » (٤٢) أن التقدير « ان هذان لهما ساحران » قال الفارسى : الحذف والتوكيد باللام متنافيان . وتبع أبا على أبو الفتح فقال فى الخصائص : فان قلت : فاذا كان المحذوف للدلالة عليه عندك بمنزلة الظاهر فهل تجيز توكيد الهاء المحذوفة فى نحو قولك : الذى ضربت زيد ، فتقول : الذى ضربت نفسه زيد ، كما تقول : الذى ضربته نفسه زيد ؟ . قيل : هذا عندنا غير جائز -

---

(٤٠) الكتاب : ٢/٦٠ .

(٤١) المغنى : ٢/١٥٨ .

(٤٢) سورة طه من الآية : ٦٣ .

وليس ذلك لأن المحذوف هنا ليس بمنزلة المثبت ، بل لأمر آخر ، وهو أن الحذف هنا انما الغرض منه التخفيف لطول الاسم ، فلو ذهبت تؤكده لنقضت الغرض ، وذلك أن التوكيد والاسهاب ضد التخفيف والايجاز ، فلم يجز أن يجتمعا ... وكذلك قولهم لمن سدد سهما ، ثم أرسله نحو الغرض ، فسمعت صوتا فقلت : القرطاس والله : أى أصاب القرطاس ، لا يجوز توكيد الفعل الذى نصب القرطاس .. ، لأن فى توكيده تثبيتا للفظه المختزل ، ورجوعا عن المعتزم من حذفه واطراحه . والاكتفاء بغيره منه (٤٣) .

وضم ابن مالك رأيه الى آراء المخالفين لسيبويه فمنع حذف عامل المصدر المؤكد نحو ضربت ضربا ، اذ المقصود به تقوية عامله ، وتقرير معناه والحذف مناف لذلك ، فيقول فى الألفية :

وحذف عامل المؤكد امتنع
وفى سواه لدليل متسع (٤٤)

هذه أقوال بعض العلماء المخالفين لسيبويه فى جواز حذف المؤكد واثبات التوكيد ، ولا تسلم أقوال بعضهم من مناقشة .

فقول الأخفش : « ان المؤكد مريد للتطويل يوهم أن الغرض من التوكيد هو التطويل ، اذ التوكيد على رأيه

---

(٤٣) الخصائص : ٢٨٨/١ بتصرف .

(٤٤) حاشية الصبان على الاشمونى : ١٥٥/٢ .

وسيلة لتحقيق التطويل ، والأمر بعكس ما قال ، لأن التوكيد يتحقق بالتطويل اذا اعتبرنا أن مراده بالتطويل الاطناب ، والا فالتطويل « زيادة اللفظ على أصل المراد لا لفائدة » (٤٥) والتأكيد ضرب من ضروب الاطناب يؤتى به في الكلام لازالة شك ، أو محو انكار ، ثم ماذا عساه يقول في اجتماع التأكيد والاختصار في قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين » (٤٦) . اذ التقدير : لا تفتأ تذكر يوسف ، وفي قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

والتقدير : لا أبرح ، فقد اجتمع التأكيد بالقسم والاختصار في كل من الآية والبيت ، ولم يقل أحد بامتناعه ، وأمثال هذا أكثر من أن يحصى .

أما ابن جني فيمكن أن يرد عليه : بأن حذف الضمير في قولهم : « الذي ضربت نفسه زيد » الغرض منه التخفيف، اذ لو أثبتناه ، وقلنا : « الذي ضربته نفسه زيد » لأحدث اثباته ثقلا غير مقبول في الكلام . وهذا الثقل ناتج من جهتين :

الأولى : تكرير الضمير مرتين متتاليتين بدون فاصل بينهما .

---

(٤٥) المطول ص : ٢٨٤ ، ٢٨٥ والمثل السائر : ٢/٣٥٧ .

(٤٦) سورة يوسف ، الآية : ٨٥ .

الثانية : طول الكلمة ، لأن الذى وما بعده من الفعل والفاعل والمفعول والضمير المؤكد له كاسم واحد ، فكأنهم استطالوا أن تكون خمسة أشياء كشىء واحد ، فكرهوا طوله ، كما كرهوا طول : « أشهيباب وأحميرار » فخففوهما بحذف الياء فقالوا : أشهباب واحمرار ، كذلك لما استطالوا الاسم بصلته حذفوا العائد تخفيفا ٠

وانما حذفوا العائد دون غيره ، اذ لا سبيل الى حذف الموصول لأنه هو الاسم ولا الى حذف الفعل أو الفاعل ، لأنهما الصلة فحذفوا العائد تخفيفا ٠ ومن ثم فان حذف الضمير هنا ليس للايجاز الذى هو ضد الاطناب ، وانما هو للتخفيف ضد الثقل الذى من شأنه ـ اذا وجد فى الكلام ـ أن يقلل من قدر فصاحته ، وهذا مما لا يتنافى مع التأكيد ٠

ولو سلمنا جدلا بعدم جواز التأكيد مع حذف المؤكد فى قولنا : « الذى ضربت نفسه زيد » اذ المقصود بالتأكيد تقوية الضمير المحذوف فلا نسلم بعدم جوازه فى مثل قولهم : هذا عبد الله حقا ، وقوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » لأن المصدر ليس مؤكدا للفعل المحذوف ، وانما هو مؤكد لمضمون الجملة قبله كما قرر الزمخشرى وأبو حيان وأبو السعود (٤٧) وغيرهم ، وليس هذا بدعا فى كلام العرب ، وانما له نظائر كثيرة منها حذف خبر « ان »

---

(٤٧) الكشاف : ١٦/٣ ، والبحر المحيط : ١٨٩/٦ ، وتفسير أبى السعود ٢٦٤/٦ ٠

مع تأكيد نسبته الى اسمها فى قول الأعشى :

ان محـــلا ، وان مرتحـــلا

وان فى السفر ما مضى مهلا (٤٨)

فقد حذف خبـــر « ان » أكثر من مرة ، مع تأكيد نسبته الى المبتـــدأ ولم يقل أحد بامتناعه ، والغريب أن ابن جنى وهو يدلل على امتناع تأكيد الفعـــل المحذوف أتى بمثال فيه تأكيـــد بالقسم لمعنى الكلام المحذوف منـــه الفعل حين قال : وكذلك قولهم لمن سدد سهما ثم أرسله نحو الغرض فسمعت صوتا فقلت : « القرطاس والله » أى أصاب القرطاس وهذا تناقض واضح ٠

بقى من المخالفين لسيبويه ــ الذين ذكرتهم ــ ابن مالك ٠٠ وقد تكفل بالرد عليه ابنـــه بدر الدين فى شرح الألفية مؤيدا رأيه بالعقل والنقـــل ٠ فقال : والذى ذكره الشيخ ــ رحمه الله ــ فى هذا الكتاب وفى غيره : « أن المصدر المؤكد لا يجوز حذف عامله ٠٠٠ لأن المصدر المؤكد يقصد به تقوية عامله ، وتقرير معناه ، وحذفه مناف لذلك فلم يجز » ٠

فان أراد أن المصدر المؤكد يقصد به تقوية عامله وتقرير معنـــاه دائما فلا شك أن حذفه مناف لذلك القصد ، ولـــكنه ممنوع ولا دليل عليه ، وان أراد أن المصدر المؤكد قد يقصد بـــه التقوية والتقرير ، وقد يقصد به مجرد التقرير فمسلم ،

---

(٤٨) الكتـــاب : ١٤١/٢ ، والمعنى : أن لنـــا محلا فى الدنيـــا ، أى حلولا ٠ وأن لنـــا مرتحلا : أى ارتحالا عنها الى غيرها : أى الى الآخرة ــ والسفر المسافرون : اى من رحلوا عن الدنيـــا ٠

ولكن لا نسلم أن الحذف مناف لذلك القصد ، لأنه اذا جاز أن يقـرر معنى العامل المذكور بتوكيده بالمصدر فلأن يجوز أن يقرر معنى العامل المحذوف لدلالة قرينة عليه أحق وأولى .

ولو لم يكن معنا ما يدفع هذا القياس لكان فى دفعه بالسماع كفاية ، فانهم يحذفون عامل المؤكد حذفا جائزا اذا كان خبرا من اسم عين فى غير تكرير ولا حصر ، نحو : « أنت سيرا » وحذفا واجبا فى نحو : سقيا ورعيا وحمدا وشكرا ، فمنع ذلك اما لسـهو عن وروده ، واما للبنـاء على أن المسـوغ لحذف العامل منه نية التخصيص ، وهو دعوى على خلاف الأصل لا يقتضيها فحوى الكلام (٤٨م) .

ومما سبق يظهر لنـا أن حذف المؤكد واثبـات التوكيد جائز نقلا وعقلا أما نقـلا فكما سبق فى قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » .

وقوله : « قالوا تالله تفتـأ تذكر يوسف » وقول امرىء القيس :

« فقلت يميـن الله أبـرح قاعـدا »

وقول الأعشى :

أن محلا وان مرتحلا وان فى السفر ما مضى مهلا

وقولهم : أنت سـيرا : أى تسير سـيرا .

وأما عقـلا فلأن المحذوف أكثر حاجة الى التـأكيد من المذكور .

هذا بالنسبة الى المصدر المؤكد لمـا قبله ، أما بالنسبة الى المصـدر المؤكد لنفسه فان سـيبويه قد أورد له أمثـلة

(٤٨م) شرح ألفيـة ابن مالك ، لابن النـاظم ، ص : ١٠٤ .

متنوعة من كلام العرب نثرا وشعرا ، ثم أردف ذلك بشواهد من القرآن الكريم ، ولم يكتف بايراد الشواهد ، وانما نراه يحللها تحليلا دقيقا ليوضح كيف أفادت تلك المصادر تقوية الكلام وتوكيده ٠

يقول سيبويه : « هذا باب ما يكون المصدر فيه توكيدا لنفسه نصبا » (٤٩) ٠

وذلك قولك : « له على ألف درهم عرفا » وانما صار المصدر « عرفا » توكيدا ، لأنه حين قال : « له على ألف درهم » فقد أقر واعترف ، فلما قال بعد ذلك : « عرفا » بمعنى : « اعترافا » علم أنه توكيد ، كما أنه اذا قال : « سير عليه » فقد علم أنه كان سير ، ثم لما قال : « سيرا » كان ذلك توكيدا ٠

ومن ذلك قولهم : « الله أكبر دعوة الحق » وانما كان « دعوة الحق » توكيدا ، لأنه لما قال : « الله أكبر » علم أن ذلك دعاء الحق ، ثم لما قال : « دعوة الحق » كان ذلك توكيدا ، وكأنه قال : دعاء حقا ٠

ومن ذلك قول الأحوص :

انى لأمنحك الصدود وانني

قسما اليك مع الصدود لأميل

فقوله : « انى لأمنحك » دال على القسم ٠ فلما قال :

---

(٤٩) الكتاب : ١/٣٨٠ - ٣٨٢ ٠

« قسما » علم أنه توكيد ، فقسما منصوب على المصدر المؤكد .

أما شواهد هذا الأسلوب من القرآن الكريم ، فمنها المصدر المضاف فى قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله »(٥٠) فصنع الله مصدر منصوب على التوكيد ، لأنه لما قال : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » علم أن ذلك صنع الله » ولكنه وكد وثبت للعباد بقوله : صنع الله » .

ومثله قوله تعالى : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده » (٥١) .

فانه لما قال : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء » علم أن ذلك وعد منه ، فيكون قوله : « وعد الله » مصدرا مؤكدا ، فصار بمنزلة « وعدهم الله وعدا » ومنه قوله تعالى : « الذى أحسن كل شىء خلقه » (٥٢) فخلقه مصدر منصوب على التوكيد ، لأنه لما قال : « الذى أحسن كل شىء » علم أن ذلك خلقه ، فيكون قوله : « خلقه » توكيدا .

ومنه قوله تعالى : « والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم » (٥٣) « فكتاب الله عليكم » مصدر

---

(٥٠) سورة النمل ، الآية : ٨٨ .

(٥١) سورة الروم ، الآيتان : ٤ ، ٥ .

(٥٢) سورة السجدة ، الآية : ٧ .

(٥٣) سورة النساء ، الآية : ٢٤ .

منصوب على التوكيد ، لأنه لما قال : « حرمت عليكم أمهاتكم » حتى انقضى الكلام ، علم المخاطبون أن هذا مكتوب عليهم ، فلما قال : « كتاب الله » كان توكيدا ٠ كما قال : « صنع الله ، ووعد الله » لأن الكلام الذى قبله وعد وصنع فكأنه قال جل وعز : وعدا وصنعا وخلقا وكتابا ٠

رأى الكسائى فى اعراب قوله تعالى : « كتاب الله عليكم »

يرى الكسائى فى اعراب قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » رأيا غير رأى سيبويه ، اذ يرى أن « كتاب الله » ليس منصوبا على المصدر كما ذهب سيبويه ، وانما هو منصوب بعليكم على الاغراء ، وكأنه قال : « عليكم كتاب الله » : أى الزموا كتاب الله ، فقدم المنصوب « كتاب » على عامله « عليكم » واستدل الكسائى لرأيه بالسماع والقياس : أما السماع فقول الراجز :

يا أيها المانح دلوى دونكا

انى رأيت الناس يحمدونكا

اذ قدم « دلوى » وهو مفعول على عامله « دونكا » وهو من تقديم معمول اسم الفعل النائب عنه عليه ٠

وأما القياس فان الظرف نائب عن الفعل ، والتقدير : الزموا كتاب الله ، ولو ظهر الفعل لجاز تقديم معموله عليه ، فكذلك ما ناب عنه (٥٤) ٠

وقد ناقش العلماء هذا الرأى ، وأبطلوا الأدلة التى

---

(٥٤) البحر المحيط : ٣/٢١٤ ، وشرح المفصل لابن يعيش : ١/١١٧٠

استدل بها الكسائى ، وفى هذا تأييد لرأى سيبويه ، وأخذ به . فيقول المبرد : ومن زعم أن قوله : « كتاب الله عليكم » نصب بقوله : « عليكم كتاب الله » فليس يدرى ما العربية ، لأن الأسماء الموضوعة موضع الأفعال لا تتصرف تصرف الأفعال ، فتنصب ما قبلها (٥٥) .

ويؤكد رفضه لما ذهب اليه الكسائى ، فيقول فى موضع آخر : ومن زعم أن قول الله عز وجل : « كتاب الله عليكم » انما نصبه بعليكم ، فقد أخطأ (٥٦) .

وأيد ابن يعيش مذهب سيبويه رافضا رأى الكسائى ، ومبطلا أدلته ، فيقول : والحق ما ذهب اليه سيبويه ، لأن هذه الظروف ليست أفعالا ، وانما هى نائبة عن الفعل ، وفى معناه ، فهى فروع العمل على الأفعال ، والفروع أبدا منحطة عن درجات الأصول ، فاعمالها فيما تقدم عليها تسوية بين الفرع والأصل ، وذلك لا يجوز ، وأما ما أنشده من البيت فلا حجة فيه ، لأنا نقول : « دلوى » رفع بالابتداء ، والظرف الخبر كما تقول : دلوى عندك ، وقد أجاز بعض النحويين أن يكون « دلوى » منصوبا باضمار فعل ، كأنه قال : املأ دلوى ويؤيد ذلك أنه لو قال : يا أيها المانح دلوى ، ولم يزد جاز لدليل الحال عليه (٥٧) .

ومما يؤيد رأى سيبويه من أن « كتاب الله » منصوب

---

(٥٥) المقتضب : ٢٣٢/١ .

(٥٦) السابق : ٢٨٠/١ .

(٥٧) شرح المفصل لابن يعيش : ١١٧/١ .

على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله قراءة محمد بن السميفع اليمانى « كتب الله عليكم » [٥٨] مفتوحة الكاف : وليس بعد التاء ألف ، والياء نصب .

يقول أبو الفتح عثمان بن جنى : فى هذه القراءة دليل على أن قوله : « عليكم » من قوله : « كتاب الله عليكم » فى قراءة الجماعة معلقة بنفس كتاب ، كما تعلقت فى « كتب الله عليكم » بنفس « كتب » وأنه ليس « عليكم » من « كتاب الله عليكم » اسما سمى به الفعل ، كقولهم : « عليك زيدا » اذا أردت « خذ زيدا » [٥٩] .

الفرق بين المصدر المؤكد لما قبله ، والمصدر المؤكد لنفسه :

قد يخفى الفرق بين المصدر المؤكد لما قبله ، والمصدر المؤكد لنفسه ، وذلك لقرب الشبه بينهما حتى ليظن أنهما من باب واحد ، وقد استشعر ابن يعيش ذلك فبين الفرق بينهما بقوله : والفرق بين هذا والذى قبله حتى جعل : هذا تأكيدا لنفسه ، وذاك تأكيد لغيره أنك اذا قلت : هذا عبد الله حقا ، فقولك : من قبل أن تذكر « حقا » يجوز أن يظن ما قلته حق ، وأن يظن أن ما قلته باطل ، فتأتى بـ (حقا) لتجعل الجملة مقصورة على أحد الوجهين الجائزين عند السامع .

أما قوله : له على ألف درهم ، هو اعتراف حقا كان أو باطلا ، فصار هذا توكيدا لنفسه اذ الذى ظهر هو الاعتراف [٦٠] .

---

(٥٨) الكشاف : ١/٥١٨ ، والبحر المحيط : ٣/٢١٤ .

(٥٩) المحتسب : ١/١٨٥ .

(٦٠) شرح المفصل لابن يعيش : ١/١١٦ .

ومن المصادر المؤكدة عنـد سيبويه المصدر الذى يجوز أن يعرب حالا ، أو مفعولا مطلقا ، نحو : سير عليه سيرا ، وانطلق به انطلاقا ٠

يقول سيبويه : ومما يجىء توكيدا وينصب قوله : سير عليه سـيرا ، وانطلق به انطلاقا وضرب به ضربا ، فينصب على وجهين :

أحدهما : على أنه حال على حد قولك : ذهب به مشيا ، وقتـل به صبرا ، وان وصـفته على هذا الحد كان نصبا ، تقول : سير به سـيرا عنيفـا ، كما تقول : ذهب به مشـيا عنيفـا ٠

ويجوز سيبويه أن تكون هـذه المصادر منصوبة بفعل مضمر من لفظهـا ، فيقول : وان شئت نصبته على اضمار فعل آخر ، ويكون بدلا من اللفظ بالفعل ، فتقول : سير عليه سـيرا ، وضرب بـه ضربا ، كأنك قلت بعد ما قلت : سـير عليه ، وضرب بـه يسـيرون سـيرا ، ويضربون ضربا ، وينطلقون انطلاقا ، ولكنه صار المصدر بدلا من اللفظ بالفعل نحو : يضربون وينطلقون وجرى على قوله : انما أنت سيرا سيرا ، وعلى قوله : الحذار ، الحذار [٦١] ٠

آراء العلماء فى نوع التوكيد بالمفعول المطلق :

اختلف العلماء فى دلالة التوكيـد بالمفعول المطـلق : أهو من التوكيد اللفظى ؟ أم من التوكيد المعنـوى ؟ فيرى

---

(٦١) الـكتاب : ١/٢٣١ ٠

ابن يعيش أنه من قبيل التوكيد المعنوى بلفظ « كل وجميع » حيث يقول : والمصدر قد يذكر لتأكيد الفعل ، نحو : قمت قياما ، وجلست جلوسا ، فليس فى ذكر هذه المصادر زيادة على ما دل عليه الفعل أكثر من أنك أكدت فعلك ... من غير دلالة على كمية أو كيفية ، فصار بمنزلة « جاءنى القوم كلهم » من حيث لم يكن فى « كلهم » زيادة على ما فى القوم (٦٢) .

أما الصبان فيرى أنه من قبيل التوكيد اللفظى ، ففى أثناء تعليقه على قول الأشمونى : فالمفعول المطلق ما ليس خبرا من مصدر مفيد توكيد عامله ، أو بيان نوعه أو عدده « يقول الصبان » قوله : « توكيد عامله » : أى مصدر عامله الذى تضمنه ليتحد المؤكد والمؤكد ، اذ ذاك شرط فى التوكيد اللفظى الذى هذا منه .

ويستدل الصبان على أن التوكيد بالمفعول المطلق انما هو من قبيل التوكيد اللفظى بأن المصدر مفعول للفعل . فاذا قلت : « ضربت » فان معناه : أحدثت ضربا ، فاذا قلت : ضربت ضربا ، فكأنك قلت : أحدثت ضربا ضربا ، فقد كرر لفظ الضرب ، والتكرير من خصائص التوكيد اللفظى (٦٣) .

والواقع أن أحدا لا يستطيع أن يجزم بأن التوكيد بالمصدر من التوكيد اللفظى أو من التوكيد المعنوى ، لأن

---

(٦٢) شرح المفصل لابن يعيش : ١/١١١ .

(٦٣) حاشية الصبان على الأشمونى : ٢/١٠٩ .

التوكيد اللفظى هو تكرار اللفظ الأول ، وأما التوكيد المعنوى فلأنه بألفاظ مخصوصة ليس المصدر منها ٠

ولكنا قد رأيناهم تسامحوا فى التوكيد اللفظى فأجازوا أن يؤكد ضمير الرفع المنفصل ضمير متصل ، سواء كان مرفوعا نحو : قمت أنت ، أو منصوبا نحو : أكرمتنى أنا ، أو مجرورا نحو : مررت به هو ٠ يقول ابن مالك :

ومضمر الرفع الذى قد انفصل أكد به كل ضمير متصل (٦٤) ٠

كما أجاز بعضهم توكيد اللفظ بمعناه فيقولون : المجتهد حقيق جدير بالتقدير ، وأجل جير ٠ بمعنى : نعم نعم ، ويقولون فى الجملة : قام محمد وقف ، وقعد على جلس(٦٥) ٠

ولما كان الفعل ومصدره معناهما واحدا ، اذ أن أحدهما أصل للآخر ، وان الاختلاف فى اللفظ بينهما يسير فان التوكيد بالمفعول المطلق أقرب الى التوكيد اللفظى منه الى التوكيد المعنوى ٠

وقد يؤيد ذلك ما قاله الامامان : الزجاج والزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٦٦) ٠

قال الزجاج : « تسلما » مصدر مؤكد ، والمصادر

---

(٦٤) شرح ابن عقيل : ٢/١٧١ ٠

(٦٥) نجوم السالك فى أوضح المسالك : ١٥٨ ٠ د/ طه الزينى ٠

(٦٦) سورة النساء ، الآية : ٦٥ ٠

المؤكدة بمنزلة ذكر الفعل ثانيا ، كأنك اذا قلت : سلمت تسليما ، فقد قلت : سلمت سلمت ، وحق التوكيد أن يكون محققا لما تذكره في صدر كلامك ، فاذا قلت : ضربت ضربا ، فكأنك قلت : أحدثت ضربا أحقه ، ولا أشك فيه . وكذلك « يسلموا تسليما » : أى يسلموا لحكمك تسليما لا يدخلون على أنفسهم فيه شكا (٦٧) .

ويقول الزمخشرى : و « تسليما » تأكيد الفعل بمنزلة تكريره ، كأنه قيل : وينقادون لحكمك انقيادا لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم (٦٨) .

ومنه قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » (٦٩) فقد قالوا : ان فائدة المفعول المطلق فى هذه الآية دفع توهم التجوز : أى كلمه بذاته ، لا بترجمان ، بأن أمره بتكليم موسى فهو مما يشبه التوكيد اللفظى الذى هو اعادة اللفظ نفسه ، أو بمرادفه (٧٠) .

وقال الزجاج : أخبر الله عز وجل بتخصيص نبى ممن ذكر ، فأعلم عز وجل أن موسى كلم بغير وحى ، وأكد ذلك بقوله : « تكليما » فهو كلام ، كما يعقل الكلام ، لا شك فى ذلك (٧١) .

---

(٦٧) معانى القرآن للزجاج : ٢/٧٥ .

(٦٨) الكشاف : ١/٥٣٨ .

(٦٩) سورة النساء ، من الآية : ١٦٤ .

(٧٠) شرح قطر الندى .

(٧١) معانى القرآن واعرابه للزجاج : ٢/١٤٦ .

وقال أبو السعود : « تكليما » مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز . قال الفراء : العرب تسمي ما وصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر ، فاذا أكد به لم يكن الا حقيقة (٧٢) .

(٧٢) تفسير أبى السعود : ٢/٢٥٦ .

التـوكيد بالنـداء

تحـدث سـيبويه عن النـداء ، وبين أن الغرض منـه التصويت بالمنـادى ليقبـل ، كما تحدث عن أدوات النداء ، وحصرها فى خمسة : الهمزة ، وأى ، ويا ، وأيا ، وهيـا ، وأن الغرض منها امتداد الصوت ، وتنبيه المدعو ٠

ثم قسم هذه الأدوات تقسيما يناسب حال المخاطب من حيث قربه أو بعده عن المنادى ، واقبـاله عليه أو اعراضه عنـه ٠

ويفهم من كلامه أن للمنادى أحوالا ثلاثة :

أولا : المنادى البعيد والمعرض عن المنـادى الذى لا يقبـل الا بعد اجتهاد ، والنـائم المستثقل فى نومه ، هؤلاء ينـادون بأى ويا وأيا وهيـا ، ليمتـد الصوت بهـا ويرتفـع ٠

ثانيا : المنادى القريب المفـاطن الذى لا يحتاج الى أكثر من التنبيه ، وهذا ينادى بالهمزة ٠

ثالثا : المنـادى الموجود بحضرة المتكلم المقبـل عليه بوجهه المنصت له ، وهذا لا يحتـاج الى أية أداة من أدوات النداء ، كقولك للرجل : أنت تفعل كذا اذا كان مقبلا عليك بوجهه ، منصتا اليك ، فتركت النداء بقولك : يا فلان ، حين قلت : أنت تفعـل ، استغناء باقبـاله عليـك ٠

ومن ثم يكون النداء للتوكيد فى مقامين :

الأول : اذا نودى القريب المفاطن ـ الذى لا يحتاج الى أكثر

من التنبيه بغير الهمزة .

الثانى : اذا نودى من بحضرة المتكلم المقبل عليه بوجهه المنصت له بأية أداة من أدوات النداء الخمسة .

وتتفاوت درجة التوكيد هنا بحسب الأداة المنادى بها ، فأقل درجات التوكيد نداء هذا المخاطب بالهمزة ، تليها أى ، ثم « يا وأيا وهيا » .

يقول سيبويه : « هذا باب الحروف التى ينبه بها المدعو » (٧٣) فأما الاسم غير المندوب فينبه بخمسة أشياء : بيا ، وأيا ، وهيا ، وأى ، وبالألف ، نحو قولك : « أحار ابن عمرو » الا أن الأربعة غير الألف قد يستعملونها اذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشىء المتراخى عنهم ، والانسان المعرض عنهم الذى يرون أنه لا يقبل عليهم الا بالاجتهاد ، أو النائم المستثقل .

وقد يستعملون هذه التى للمد فى موضع الألف ، ولا يستعملون الألف فى هذه المواضع التى يمدون فيها .

وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة اذا كان صاحبك قريبا منك مقبلا عليك توكيدا ، وان شئت حذفتهن كلهن استغناء كقولك : « حار بن كعب » وذلك أنه جعلهم بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه .

وبيان وجه التوكيد فيما ذكره سيبويه أن القريب المفاطن لا يحتاج فى ندائه الى أكثر من التنبيه ، وهذا التنبيه

---

(٧٣) الكتاب : ٢/٢٢٩ ، ٢٣٠ .

تؤديه الهمزة ، فاذا نودى بغيرها كيـا أو هيـا أو أيا فان اللفظ يصبح زائدا عن المعنى ، وكأن الهمزة ذكرت أكثر من مرة ، وهذا هو معنى التوكيد ٠

أما سر التوكيد بالنداء فيرجع اما الى الأمر المدعو له ، أو الى الداعى أو الى المدعو ٠ فبالنسبة الى الأمر المدعو له فلتنبيه على عظمته وعلو شأنه ، حتى كأن المنادى مقصر فى أمره ، غافل عنه ، مع شدة الحرص عليه ، فتقول ـ مثلا ـ هيا فلان تهيـأ للحرب ، عند حضوره ٠

وبالنسبة الى الداعى فلشدة رغبته فى اقبـال المنادى حتى صار اقباله كالبعيد ، لأن النفس اذا اشتد حرصها على الشىء صارت كل ساعة قبل وقوعه فى غاية البعد ، فتقول : أيا غلام بادر بالمـاء فأنا عطشان ٠

وأما بالنسبة الى المنادى فلتنبيه على غفلته ، فكأنه بعيد لا يسمع ، نحو : تنبـه أيها الغـافل ، واسمع ، أو لانحطاط شـأنه ، فـكأنه بعيد عن مجلس الحضـور ٠ نحو : من أنت يا هذا ؟؟ (٧٤) ٠

واذا ذهبنـا الى علماء البـلاغة لنـرى ماذا قالوا فى النـداء ، فنجد أنهم لم يضـيفوا شـيئا ذا بال الى ما قاله سيبويه سواء بالنسبة الى أدواته أو بالنسبة الى استعمال تلك الأدوات ٠

يقول الدسوقى شـارحا ما قاله علماء البلاغة قبـله :

---

(٧٤) مواهب الفتـاح : ٣٣٣/٢ شروح التلخيص ٠

واعلم أن الحروف التى تنوب منـاب أدعو خمسة : منهـا : « أيا وهيا » وهما موضوعان لنداء البعيد ، وقـد ينزل غير البعيد - وهو الحاضر - منزلة البعيد لكونه نائما أو ساهيا حقيقة ، فيجعل كل واحـد من النوم والسهو بمنزلة البعد فى اعلاء الصوت ، أو لتنزيل المنادى منزلة ذى غفلة لعظم الأمر المدعو له ، حتى كأن المنادى غافل عنه ، مقصر لم يف بما هو حقه من السعى والاجتهاد .

ومنها : « أى والهمزة » وهما موضوعان لنداء القريب، وقد ينزل البعيد منزلة القريب ويستعملان فيه تنبيها على أنه حاضر فى القلب لا يغيب عنـه حتى صار كالمشهود الحاضر كقـوله :

اسكان نعمان الأراك تيقنـوا

بأنـكم فى ربـع قلبى سكان

ومنها : « يا » واختلف فيها ، فقال ابن الحاجب : انها حقيقة فى القريب والبعيد ، لاستعمالها فيهما على السواء ، وقال الزمخشرى : انها حقيقـة فى البعيـد واستعمالها فى القريب لاستقصار الداعى نفسه عن مرتبـة المنـادى : أى تصور نفسه فى مكان بعيد عن تلك الحضرة ، كقولنا : يا الله مع أنه أقرب الينا من حبل الوريد (٧٥) .

ومما سبق يتبين لنا أن ما قاله سيبويه فى النداء كان الأصـل الذى نقل عنه علماء البلاغة ، ولكنهم اختلفوا معه

---

(٧٥) حاشـية الدسـوقى على مختصر السـعد : ٣٣٤ من شروح التلخيص ، المطول ص : ٢٤٤ .

فيما يأتى :

أولا : فى معنى « أى » فبينما يرى سيبويه أنهـا موضوعة لنداء البعيد يرى علماء البلاغة أنها لنـداء القريب كالهمـزة ٠

ثانيا : يرى سيبويه أن البعيد لا يجوز أن ينادى بما ينادى به القريب حيث قال : وقد يستعملون هذه التى للمد فى موضـع الألف ٠ ولا يستعملون الألف فى هـذه المواضع التى يمدون فيها ، أما علماء البلاغة فيرون أن ينادى البعيد بالهمزة تنبيهـا على أنه حاضر فى القلب لا يغيب عنه ٠ ولكل منهما دليـله الذى يستند اليه ، فاذا كان علماء البلاغة قد استشهدوا لرأيهم بشاهد من الكلام الفصيح وهو قول الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنـوا
بأنـكم فى ربـع قلبى سكان

فان سيبويه كان قريب العهد بالعرب الفصحاء الذين كان يسـمع منهم ، أو على الأقـل ـ كان ينقـل عمن سمع منهم ٠

ثالثا : يرى سيبويه أن القريب المفاطن لا يحتاج فى ندائه الى أكثر من التنبيـه بالهمزة ، فاذا نودى بغيرها ممـا ينادى به البعيد كان ذلك لتوكيد التنبيه ، وقد أهمل البلاغيون ذلك مع أنه سر دقيـق من أسرار النـداء لفت اليه سيبويه ، وطبقـه المفسرون على أى الذكر الحكيم ٠

التوكيد ونداء المبهم

تحدث سيبويه عن المنادى المبهم ، الذى هو وصله الى نداء ما فيه الألف واللام وحصر ذلك المبهم فى شيئين :

أحدهما : « أى » .

والثانى : اسم الاشارة ، فقولنا : « يا أى » مثل قولنا : « يا هـذا » ولما كان الاسم المبهم لا يحسن السكوت عليه ، فلا نقول : يا أى ، أو يا هـذا ونسكت ، فلابد اذن من اسم يوضحه ويزيل ابهامه ، ويكون وصفا له ، فنقول : يا أيها الرجل ، ويا هذا الرجل ، فالرجل وصف لأى ، كما هو وصف لهـذا ، وفى التوضيح بعد الابهام لون من ألوان التوكيد والتقرير ، وذلك لتشوف نفس السامع الى ما يزيل ذلك الابهام ، ويكشف غموضه ، فاذا ما جاء الموضح قر فى النفس ، وتمكن منها .

ثم يبين سيبويه أن ثمة توكيدا آخر فى هذا الأسلوب ، مصدره تلك الهاء المقحمة بين « أى » وموصوفها فى قولنا : « يا أيها الرجل » اذ هى بمثابة تكرير حرف النداء فيقول : وأما الألف والهاء اللتان لحقتا « أى » توكيدا ، فكأنك كررت « يا » مرتين اذا قلت : « يا أيها » وصار الاسم بينهما كما صار « هو » بين « ها » و « ذا » اذا قلت : « ها هو ذا »[٧٦] .

ويقول فى موضع آخر : و« يا » للتنبيه ، وأكدوا التنبيه

---

(٧٦) الكتاب : ٢/١٩٧ .

بها حين جعلوا « يا » مع «ها» فمن ثم لم يجز لهم أن يسكتوا على « أى » ولزمه التفسير (٧٧) .

وقد التقط الزمخشري - رائد التفسير البيانى - ما قاله سيبويه هنا وطبقه على تفسير بعض مواضع النداء فى القرآن الكريم ، من تلك المواضع قوله تعالى : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »(٧٨) يقول الزمخشرى : و « يا » حرف وضع فى أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه . وأما نداء القريب فله أى والهمزة ، ثم استعمل فى مناداة من سها وغفل وان قرب تنزيلا له منزلة من بعد ، فاذا نودى به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معنى به جدا ، وأى وصلة الى نداء ما فيه الألف واللام ، كما أن ذو والذى وصلتان الى الوصف بأسماء الأجناس ، ووصف المعارف بالجمل ، وهو اسم مبهم مفتقر الى ما يوضحه ويزيل ابهامه ، فلابد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء ، فالذى يعمل فيه حرف النداء هو « أى » والاسم التابع له صفته كقولك : يا زيد الظريف ، الا أن « أى » لا يستقل بنفسه استقلال زيد ، فلم ينفك عن الصفة ، وفى التدرج من الابهام بعد التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد ، وكلمة

---

(٧٧) السابق ، ٢/٢١٢ .

(٧٨) سورة البقرة ، الآية : ٢١ .

التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضا مما يستحقه « أى » من الاضافة . فان قلت : لم كثر فى كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر فى غيره ؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها وهم عنها غافلون ، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكدا لأبلغ (٧٩) .

---

(٧٩) الكشاف : ١/٢٢٥ ، ٢٢٦ .

التوكيد بالاختصاص

تحدث سيبويه عن التوكيد بالاختصاص ، وهو ما جاء فى كلام العرب على طريقة النداء ، وليس بنداء .

ووجه الشبه بين النداء والاختصاص « أن كل منادى مختص تختصه فتناديه من بين من بحضرتك لأمرك ونهيك وخبرك ، ومعنى اختصاصك اياه أن تقصده ، وتختصه بذلك دون غيره .

وقد أجرت العرب أشياء اختصوها على طريقة النداء لاشتراكها فى الاختصاص ، فاستعير لفظ أحدهما للآخر » (٨٠) .

وذلك قولهم : « أنا أفعل كذا أيها الرجل » أى أنا أفعل كذا مختصا به من بين الرجال ، ونحن نفعل كذا أيها القوم : أى نحن نفعل كذا متخصصين به من بين الأقوام ، واللهم اغفر لنا أيتها العصابة : أى اغفر لنا مخصوصين من بين العصائب ، يقول الزمخشرى : فلم يعنوا بالرجل والقوم والعصابة الا أنفسهم ، وما كنوا عنه بأنا ونحن والضمير فى لنا (٨١) .

يقول سيبويه : « هذا باب ما جرى على حرف النداء وصفا له وليس بمنادى ينبهه غيره ، ولكنه اختص ، كما أن المنادى مختص من بين أمته لأمرك ونهيك أو خبرك ، وذلك

---

(٨٠) شرح المفصل لابن يعيش : ١٧/٢ .

(٨١) السابق الجزء والصفحة .

قولك : أما أنا فأفعل كذا وكذا أيها الرجل ، ونفعل كذا وكذا أيها القوم ، واللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، أردت أن تختص ، ولا تبهم حين قلت : أيتها العصابة ، وأيها القوم ، أراد أن يؤكد لأنه قد اختص حين قال : « أنا » ولكنه أكد ، كما تقول للذى هو مقبل عليك بوجهه مستمع منصت لك كذا كان الأمر يا أبا فلان توكيدا » (٨٢) .

وبيان وجه التوكيد فيما ذكره سيبويه من الاختصاص أن المتكلم عندما يقول - مثلا - : أنا أكرم الضيف أيها الرجل ، فقد قدم المسند اليه « أنا » على خبره الفعلى « أكرم » ويقول البلاغيون : ان تقديم المسند اليه على خبره الفعلى يفيد تخصيصه بالمسند للرد على من زعم انفراد الغير به ، أو مشاركته فيه ، كقولك : أنا كتبت فى معنى فلان ، وأنا سعيت فى حاجته ، ولذلك اذا أردت التوكيد قلت للزاعم فى الوجه الأول : أنا كتبت فى معنى فلان لا غيرى ، وفى الوجه الثانى : أنا كتبت فى معنى فلان وحدى (٨٣) .

اذن فالتخصيص حاصل من تقديم المسند اليه « أنا » على الخبر الفعلى « أكرم » وقد صرح بذلك ابن يعيش حين قال : وهذا الضرب من الاختصاص يفيد تخصيص المذكور بالفعل وتخليصه من غيره (٨٤) .

أما التوكيد فقد حصل من قوله : « أيها الرجل » اذ أن

---

(٨٢) الكتاب : ٢/٢٣٢ .

(٨٣) الايضاح بشرح الشيخ عبد المتعال الصعيدى : ١/١٢٣ .

(٨٤) شرح المفصل لابن يعيش : ٢/١٩ .

« أى » وصفته مرفوع بالابتداء ، والخبر محذوف تقديره : أيها الرجل من أريد ، والجملة فى موضع الحال من فاعل « أكرم » ومن ثم فان تقدير الكلام : أنا أكرم الضيف حالة كونى مختصا من بين أفراد الرجال باكرام الضيف ، وكأنه قال : أنا أكرم الضيف ، لا غيرى ردا على من زعم انفراد غيره باكرام الضيف ، أو أنا أكرم الضيف وحدى ردا على من زعم اشتراك غيره معه .

اذن فقوله : « أيها الرجل » قد أفاد توكيد تخصيص مدلول الرجل بالاكرام الذى نسب الى مدلول « أنا » .

يقول ابن يعيش فى قوله « أيها الرجل » : والجملة فى موضع الحال ، لأن الكلام قبلها تام ، وذكر « أى » هنا وصفته توضيحا وتأكيدا ، اذ الاختصاص حاصل من « أنا ونحن » فأعرفه (٨٥) .

---

(٨٥) السابق ، ٢/١٨ .

التوكيد بالقصـــر

عرف البلاغيـــون القصر بأنه : « تخصيص شيء بشيء بطـــريق مخصوص » والطـــرق المخصوصة التى اصطلحوا عليها أربعة هى: العطف بلا وبل ولكن ، والنفى والاستثناء ، وانما ، وتقديم ما حقه التـــأخير ٠

وقـــد تحدث سيبويه عن العطف بلا وبل ولـــكن ، فقال « تقول : مررت برجـــل صالح بل طالح ، وما مررت برجـــل كريم بل لئيم » أبدلت الصـــفة الآخرة من الأولى ، وأشركت بينهما « بل » فى الاجراء على المنعوت ومثـــله : ما مررت برجل صالح لكن طالح ، أبدلت الآخر من الأول فجرى مجراه فى « بل » وان شئت رفعت فابتـــدأت على « هو » فقـــلت : ما مررت برجل صالح ولكن طالح ، وما مررت برجل صالح بل طالح [٨٦] ٠

ويقول : ما أنا ببخيل ، ولكن ان تأتنى أعطك ، وتقول : ما رأيتك عاقلا ولكن أحمق [٨٧] ٠ وتقول : مررت برجل راكع لا ساجد لاخراج الشك ، أو لتـــأكيد العلم فيهما [٨٨] ٠

وبيـــان وجه التوكيد هنا أن نفى الشيء مشعر باثبـــات ضده : فنفى العقل ــ مثلا ــ فى قوله : ما رأيتك عاقلا يشعر باثبات الحمق ، فاذا ذكر الحمق فانه يكون تأكيدا لمـــا فهم من نفى العقل ، وذكر الركوع تأكيدا لنفى السجود ٠

---

(٨٦) الـكتاب : ١/٤٣٤ ٠

(٨٧) الـكتاب : ٣/٧٧ ٠

(٨٨) الـكتاب : ١/٤٣٠ ٠

أما الداعى للتوكيد فظاهر أنه للرد من اعتقد عكس الحكم المؤكد ، اذ المتبادر من قول من قال : مررت برجل راكع لا ساجد أنه للرد من يعتقد أنه ساجد : أى لا ساجد كما تزعم أيها المخاطب ، وكذلك قوله : ما رأيتك عاقلا ولكن أحمق « أنه للرد على من يزعم أنه عاقل : أى ما رأيتك عاقلا أيها المخاطب كما تزعم ولكن أحمق ، ولو لم يكن المراد قلب اعتقاد المخاطب لكفى فى المثال الأول أن يقول : مررت برجل راكع ، ولكفى فى المثال الثانى أن يقول أنت أحمق .

وقد صرح بهذا ابن يعقوب المغربى فى أثناء تعليقه على قول الخطيب : « وفى قصر الموصوف على الصفة قلبا زيد قائم لا قاعد ، أو ما زيد قاعدا بل قائم « يقول ابن يعقوب : لا يقال قصر القلب بطريق العطف لا فائدة له على مذهب المصنف ، لأنه شرط تحقق تنافى الوصفين ، واذا تحقق تنافيهما كما فى المثال علم من ثبوت أحدهما أو نفيه نفى الآخر أو ثبوته ، فأى فائدة لعطف المثبت أو المنفى ؟ لأنا نقول : الحكم المقدر هنا منكر ، لاعتقاد المخاطب عكسه ، والحكم المنكر يجب تأكيده ، ففى اثبات ضد أو خلاف المعتقد نفى الحكم المعتقد وفى العطف بالنفى تقرير ما تقرر أولا ، فقد توصل بالعطف المفيد للحصر صراحة الى التأكيد المناسب للمقام [٨٩] .

والفرق بين رأى سيبويه ورأى البلاغيين ، أن البلاغيين يرون أن القصر بطريق العطف يكون لقلب اعتقاد المخاطب

---

(٨٩) مواهب الفتاح : ١٨٨/٢ من شروح التلخيص .

الذي يعتقد عكس الحكم اذ الوصفان هنا متنافيان ، أما سيبويه فيرى أن القصر اما لازالة شك المخاطب ان كان شاكا في الحكم ، أو لتأكيد علمه ان كان عالما به ٠

أما حديثه عن النفي والاستثناء وافادته القصر ، فقد كان واضحا وان لم يذكر القصر بلفظه حيث يقول : فأما الوجه الذي يكون فيه الاسم قبل أن تلحق « الا » فهو أن تدخل الاسم في شيء تنفي عنه ما سواه ، وذلك قوله : « ما أتاني الا زيد ، وما لقيت الا زيدا ، وما مررت الا بزيد » تجري الاسم مجراه اذا قلت : ما أتاني زيد ، وما لقيت زيدا ، وما مررت بزيد ، ولكنك أدخلت « الا » لتوجب الافعال لهذه الاسماء ولتنفي ما سواها ، فصارت هذه الاسماء مستثناة (٩٠) ٠

أما تقديم ما حقه التأخير وانما فلم يذكر سيبويه أنهما يفيدان القصر ولعل عدم حديثه عن افادة « انما » القصر هو ما دعى العلماء بعده أن يحملوا انما على معنى النفي والاستثناء في افادتها القصر ٠

فالشيخ عبد القاهر في الفصل الذي عقده لانما يقول : قال الشيخ أبو علي في الشيرازيات : يقول ناس من النحويين في نحو قوله تعالى : « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ان المعنى : ما حرم ربي الا الفواحش ، قال :

---

(٩٠) الكتاب ٠

وأصبت ما يدل على صحة قولهم فى هذا وهو قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذمار وانما

يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

فليس يخلو هذا الكلام من أن يكون موجبا أو منفيا ، فلو كان المراد به الايجاب لم يستقم ، ألا ترى أنك لا تقول : « يدافع أنا » ، ولا « يقاتل أنا » ، وانما تقول: أدافع وأقاتل ، الا أن المعنى لما كان ما يدافع الا أنا فصلت الضمير كما تفصله مع النفى اذا ألحقت معه « الا » حملا على المعنى .

وقال أبو اسحاق الزجاج فى قوله تعالى : « انما حرم عليكم الميتة والدم » النصب فى الميتة هو القراءة ، ويجوز : « انما حرم عليكم » قال أبو اسحاق : والذى أختاره أن تكون « ما » هى التى تمنع ان من العمل ، ويكون المعنى : ما حرم عليكم الا الميتة لأن « انما » تأتى اثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه ، وقول الشاعر : وانما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى .

المعنى : ما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى .

والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب .

---

(٩١) دلائل الاعجاز .

مراجع البحث ومصادره

١ ـ الايضاح بشرح الشيخ عبد المتعال الصعيدى طبعات مختلفة ٠

٢ ـ الايضـــاح بشرح الشيخ محمد عبد المنعم خفـاجى ـ مكتبة الكليات الأزهرية ٠

٣ ـ البحر المحيط ٠

٤ ـ تفســير الكشاف للزمخشرى طبعــة مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ٠

٥ ـ تفسير أبى السعود دار احياء التراث العربى ـ بيروت بدون تاريخ ٠

٦ ـ حاشية السيد الشريف على المطول « هامش المطول » طبعة الداورى قم ـ ايران ٠

٧ ـ حاشــية الدســـوقى على مختصر الســعد ـ شروح التلخيص ٠

٨ ـ حاشية الأمير على مغنى اللبيب على هامش المغنى ـ الحلبى ٠

٩ ـ حاشية الصبان على الأشمونى ٠

١٠ـ خزانة الأدب للبغدادى طبعة بولاق : ١٢٢٩ هـ ٠

١١ـ الخصـائص لابن جنى ـ المجلس الأعــلى للشــئون الاسلامية ٠

١٢ـ دلائل الاعجاز للامام عبد القــاهر الجرجانى ـ تحقيق الشــيخ محمد عبد المنعم خفــاجى مكتبــة القــاهرة

١٣٩٨ هـ / ١٩٦٩ م ٠

١٣- سيبويه امام النحاة - علي النجدى ناصف - مكتبة نهضة مصر بدون تاريخ ٠

١٤- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ٠

١٥- شرح الكافية لنور الدين الجامى : تحقيق د/ سامى الرفاعي العراق : ١٩٨٣ م ٠

١٦- شرح المفصل لابن يعيش عالم الكتب - بيروت بدون تاريخ ٠

١٧- شرح التصريح على التوضيح - الشيخ خالد الأزهرى - المطبعة الأزهرية ١٩٥٢ ٠

١٨- طبقات النحويين واللغويين للزبيدى - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - مطبعة السعادة ١٣٧٣ هـ ٠

١٩- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون - الهيئة المصرية للكتاب ٠

٢٠- المثل السائر لضياء الدين بن الأثير - تحقيق د/ بدوى طبانة وأحمد الحوفى - نهضة مصر ٠

٢١- المحتسب لابن جنى طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠

٢٢- المطول لسعد الدين التفتازانى - مكتبة الداورى قم - ايران ٠

٢٣- مغنى اللبيب لابن هشام ٠

٢٤- المقتضب للمبرد - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

٢٥- معانى القرآن للزجاج - الهيئة المصرية للكتاب - تحقيق د/ عبد الجليل شلبى .

٢٦- من الأسرار البلاغية للتوكيد والبيان والبدل د/ أيوب عبد العزيز - دار العلم للطباعة ١٩٨٧ .

٢٧- نجوم السالك فى أوضح المسالك د/ طه الزينى .

٢٨- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى - شروح التلخيص .